٣ ـ تقى الدين السبكى

بقلم محمد طه الحاجرى

— ٣ —

وبعد أن قضى من الشام حاجته عاد إلى مصر سنة سبع ، فاستوطن القاهرة ، وانقطع فيها لتصنيف الرسائل والكتب ، وتعليق الشروح ، والجلوس للطلاب . وقد القيت اليه رياسة الشافعية ، فجلت الأسئلة والاستفتاءات ترد عليه من أنحاء الشرق العربى كثيرة متلاحقة ، وهو يجيب عليها ويفتى فيها . وكان من عادته — كما ذكر ابنه تاج الدين — أن يشرك فى بحثها ومناقشتها أبناءه وتلاميذه ، إلا أن تكون متعلقة بأحوال المتصوفة وأهل الباطن فيكتم أمرها وأسماء أصحابها وما يراه فيها . إذ كان ذلك خارجا عن حدود النظر العقلى والاستدلال المنطقى

وقد لبث على ذلك — منذ عودته من السماع بالشام إلى رجوعه إليها قاضى قضاتها — اثنين وعشرين عاماً ، حج فى أثنائها ثم ذهب إلى المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك سنة ٧١٦ هـ

ولم يل تقى الدين فى هذه الفترة عملاً يتصل بالسلطان ، أو أمراً من أمور الدولة ، على كفايته ومقدرته ، فقد كانت تنقصه المرونة الخلقية التى تقضى بالتزلف والتودد ، ثم بالصانعة والمداهنة والاغماض فى الحق أحيانا ؛ ولهذا كانت مادة عيشه قانعة ضيقة مهددة بما تقضى به شهوات الأمراء وغايات المزدلفين ؛ فكل ما نعرف من هذا انه تولى مشيخة جامع ابن طولون فترة من الزمن ، وكان يأتيه منها رزق زهيد مما وقفه عليه الملك المنصور حسام الدين لاجين[1] (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) ولكن هذه المشيخة لم تلبث أن طارت من يده وأخذت منه سنة ٧١٩ (١٣١٩ م) . وله فى هذا المقام شعر نورد شيئا منه ،

لأنه ـ مع ركاكته ـ يدل على روحه العلمية الخالصة التى تضع العلم فوق كل اعتبار :

كمال الفتى بالعلم لا بالمناصب ... ورتبة أهل العلم أسمى المراتب
فلا تعدلن بالعلم مالاً ورفعة ... وسمر القنا أو مرهفات القواضب
وهب أدبرت دنياك عنك فلا تبل ... فمنها الفد عوضت صفو المشارب
فما قدر ذى الدنيا؟ وما قدر أهلها؟ ... وما اللهو بالأولاد أو بالكواعب؟

اذا قست ما بين العلوم وبينها
بعقل صحيح ، صادق الفكر ، صائب
فما لذة تبقى ، ولا عيش يقتنى
سوى العلم أعلى من جميع المكاسب

وهكذا كانت روحه العلمية الغلابة التى كان يتعزى بها عما فاته من متاع الدنيا . وقد ظلت هذه الوظيفة محتجزة دونه حتى عام ٧٢٧ (١٣٢٧) فعادت إليه وبقيت فى يده إلى سنة ٧٣٩ هـ حينما اختير لقضاء الشام

وسبب آخر من أسباب الحياة المحدودة كان فى يده ، ولم يخل كذلك من شهوات العابثين فى انتزاعه : ذلك هو وظيفة التدريس بالمدرسة المنصورية ، وكانت مسندة أول الأمر إلى قاضى القضاة جمال الدين الزرعى ، ثم عين قاضى قضاة الشام ٧٢٣ (١٣٢٣ م) فخلا تقى الدين السبكى محله ، وكان جديراً بذلك . ولكن الزرعى لم يطل فى قضاء الشام مقامه ، فلم يلبث عاماً حتى عزل عنه . وكان صديقاً لأرغون[1] نائب المملكة المصرية فى ذلك الحين ، فبلغه ذلك وهو بالحجاز ، فشق عليه أن يحرم صديقه مكانه فى مصر والشام ؛ واستشاط غيظاً وحنقا على تقى الدين ، وأقسم ليزيلنه عن مكانه ، ويعيدن إليه صاحبه ؛ متى عاد إلى مصر ؛ وترامت بذلك الأخبار إلى الشيخ ، ولم يكن له ما يكفل رزقه غير هذه الوظيفة ، وكاد يصبح ضحية شهوة جامحة ، لولا أن أرغون ما كاد يصل إلى مصر حتى قبض عليه فى بعض ما كان يسود ذلك العهد ؛ فقل بذلك من حده ، ووقى الشيخ شر نزوته وكيده

هذا كله والعهد عهد الملك الناصر ابن قلاوون ، وهو خير

(١) انظر ما كتبه المقريزى عن تجديد جامع ابن طولون وعمارته (ج : ٢ ص : ٢٦٩ ط بولاق)

(١) هو أرغون ، الناصرى غير الكاملى الذى سيجىء ذكره . وقد تولى نيابة المملكة المصرية من سنة ٧١٢ إلى سنة ٧٤١ . انظر ابن اياس

عهد مصر ، وأقلها خضوعاً للنزوات الطائشة

وقبل أن ندع هذا الدور من حياة تقي الدين السبكي ، نرى أن لابد من الاشارة إلى مجهود من مجهوداته العلمية الموفقة ، قام به في تلك الفترة ، وقد رفع كثيراً من شأنه ، وكان له أثر غير صغير في حياته ، فيما نحسب ، ذلك هو رده على أبي العباس ابن تيمية في مسألة الطلاق ومسألة الزيارة . وقد كتب رده على كل من المسألتين في كتابين : أحدهما موجز مجمل ، والآخر كبير مفصل ؛ ويظهر أنه قد أبدى في رده مقدرة فائقة في النقد والبيان ، وأبان عن سعة اطلاع وحضور بديهة ، كما بعد عن الشطط والتجريح ، والتزم جانب الانصاف والعدلة ، مما دعا إلى إعجاب الأشاعرة به ، وإكبار ابن تيمية نفسه له ، وثنائه عليه فيما كتبه دفعاً لنقده

وأحسبني لا أبعد عن الصواب إذا زعمت أن هذا الرد كان السبب في توجه نظر السلطان إليه ، واختياره لقضاء الشام ، بعد أن لبث ذلك المنصب لعبة للأهواء منذ مات جلال الدين القزويني سنة ٧١٩ (١٣١٩ م) حتى سنة ٧٣٩ هـ . وإصراره على ذلك إصراراً ذهبت معه كل محاولات الطويلة في التملص من هذا التقليد ، ووهن معه كل ما تذرع به لقاء هذا الأمر الذي يقدر عاقبته ، ويعرف حق المعرفة خطورته

ذلك أنه وإن كان قد ذهب في رده مذهباً علمياً خالصاً فقد تناول به مسألة تمس أهل الأمر كما تمس العلماء ، فان ظهور ابن تيمية في الشام بمذهبه الذي ينقض مذهب الأشاعرة ، وانتصاره له بكل ما أوتي من قوة في البيان والمناظرة ، فرق أهل الشام فرقتين ، واجتذب إليه طائفة غير قليلة من أعيان العلماء أمثال المزي والذهبي والبرزالي : خرجوا على الأشعرية وهي المذهب الرسمي للدولة منذ كان الأيوبيون إلى ذلك العصر ، بعضهم في صراحة وجلاء ، وبعضهم في تنكر واستخفاء ، وسنرى فيما يلي بعض الظواهر في هذا مما يؤيد ما نذهب إليه من أن اختيار السبكي لقضاء الشام كان منظوراً فيه إلى هذه الحالة ، مرجواً منه القضاء على هذه الفتنة .

— ٤ —

وهكذا تولى السبكي قضاء الشام في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٧٣٩ (٢ يناير سنة ١٣٣٩) ، فغادر مصر إليها ، وانتقل بذلك من حياته البسيطة الساذجة ، إلى حياة مركبة معقدة ، وترك بيئته الهادئة الوادعة التي ترفرف عليها روح العلم ، وتسري فيها نفحات الأبوة الكريمة ، إلى ذلك المضطرب الواسع الذي يموج بشتى النزعات ومختلف النزوات ؛ وتسوده روح خبيثة في مذاهب يزعمون لها صفة الدين تقتتل ، وشهوات باسم الحكم تفرض وتنفذ ، وأين يذهب السبكي في مثل هذا الجو ؟ وهو المطبوع على الصراحة في الحق ، والصلابة في الخلق ، والاستقامة في الرأي ، إلا أن يصبح غرضاً للعاندة والمشاجرة والشهوات الخبيثة الفاجرة ؛ ولهذا نجد ابنه تاج الدين يقول في هذا الصدد بلهجة مريرة : « فقبل الولاية بالمغلطة أف لها ، وورطة ليته صمم ولا فعلها » وسنرى فيما يلي صوراً مختلفة لهذه الحالة

وإنما نعرض الآن حياته العلمية في الشام عرضاً موجزاً ؛ فنلاحظ أن أغلب مصنفاته كتبها في الفترة التي قضاها بمصر كما نص على ذلك ابنه ، ولا ريب أن هذه الحياة الجديدة بما تفرضه من تكاليف ومشاق قد شغلته عن العلم بعض الشيء ؛ هذا إلى كبر سنه ، فقد تولى قضاء الشام وهو في حدود الستين ، فكانت دواعي التأليف قد فترت في نفسه ، حتى لنراه في أواخر حياته يميل إلى التأمل ، ويجنح إلى « المراقبة » ، ويزهد فيما كان مشغوفاً به من قبل من المناظرة العلمية على قواعدها المقررة

على أنه قد كتب في الشام أبحاثاً جليلة يتجلى فيها عمق التفكير ونفاذ البصيرة والاحاطة ، ونجد بعضاً منها في ثنايا كتب ابنيه : بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي السبكي ، وتاج الدين عبد الوهاب صاحب الطبقات

ثم إنه ما كاد يصل إلى الشام حتى جلس للتحديث في « الكلاسة » وسمع منه أئمة الحديث في عصره كالمزي والذهبي والبرزالي ، وقرأ عليه جميع معجمه ابن ابن عمه الحافظ محمد بن عبد اللطيف السبكي . ثم تولى سنة ٧٤٢ (١٣٤١ م) مشيخة دار الحديث الأشرفية خلفاً للحافظ جمال الدين أبي الحجاج المزي ، وفي سنة ٧٤٥ (١٣٤٤ م) تولى التدريس في « الشامية البرانية » خلفاً لأستاذها شمس الدين ابن النقيب ، كما تولى خطابة الجامع الأموي وباشرها مدة لطيفة

(يتبع) محمد طه الحاجري